بُنَاة دَوْلَـةِ الإِسْلام

- ٤٣ -

شُرَحْبيل بن حَسَنَة

رضي الله عنه

هُوَ شُرَحْبِيلُ بنُ عَبْدِ اللَّهِ بنِ المُطَاحِ بنِ عَمْرٍ بنِ كِنْدَةَ، حَلِيفُ بَنِي زُهْرَةَ، وَيُكَنَّى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ.

أَمَّا أُمُّهُ فَهِيَ حَسَنَةُ، وَيُنْسَبُ لَهَا، وَهِيَ عَدَوِيَّةٌ. وَقَدْ تَزَوَّجَتْ سُفْيَانَ بنَ مَعْمَرٍ بنِ حَبِيبٍ بنِ حُذَافَةَ بنِ جُمَحٍ. وَكَانَ لَهُ مِنْهَا خَالِدٌ وَجُنَادَةُ ابْنَا سُفْيَانَ. وَمِنْ هُنَا كَانَ مِنَ المُؤَرِّخِينَ مَنْ يَضَعَهُ فِي عِدَادِ بَنِي زُهْرَةَ مَا دَامَ حَلِيفاً لَهُمْ، وَمَنْ يَضَعَهُ فِي بَنِي جُمَحٍ مَا دَامَ قَدْ عَاشَ بَيْنَهُمْ.

وُلِدَ شُرَحْبِيلُ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ وَالأَرْبَعِينَ قَبْلَ الهِجْرَةِ، فَهُوَ أَصْغَرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَرْبَعِ سَنَوَاتٍ، وَقَدْ كَانَ هَادِئاً قَلِيلَ الكَلَامِ، كَثِيرَ الحَيَاءِ، شُجَاعاً، وَلَمْ تُعْرَفْ شَجَاعَتُهُ إِلاَّ عِنْدَمَا خَاضَ المَعَارِكَ، وَقَدْ قُدِّمَ بَعْدَهَا.

أَسْلَمَ فِي وَقْتٍ مُبكِّرٍ، وَرُبَّمَا كَانَ إِسْلَامُهُ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ

لِلْبِعْثَةِ، وَقَدْ هَاجَرَ إِلَى الحَبَشَـةِ مَعَ المَجْمُوعَـةِ الثَّـانِيَةِ الَّتِـي انْطَلَقَتْ مَعَ جَعْفَرِ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَبَعْدَهُ، وَبَقِيَ فِي الحَبَشَةِ مَعَ أُمِّهِ وَزَوْجِهَا سُفْيَانَ بنِ مَعْمَرٍ، وَأَخَوْيهِ مِنْهَا خَالِدٍ وَجُنَادَةَ ابْنَيْ سُفْيَانَ.

وَكَانَ فِيمَنَ هَاجَرَ إِلَى الحَبَشَةِ عُبَيْدُ اللَّهِ بنُ جَحْشٍ ابـنُ عَمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَـهُ زَوْجُـهُ أُمُّ حَبِيبَةَ رَمْلَةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ، غَيْرَ أَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ قَدِ ارْتَدَّ هُنَاكَ وَتَنَصَّرَ، فَفَارَقَتْهُ زَوْجُهُ أُمُّ حَبِيبَـةَ وَتَمَسَّـكَتْ بِعَقِيدَتِهَـا، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِكْرَامَهَا لِمُحَافَظَتِهَا عَلَى دِينِهَا، فَطَلَـبَ مِنَ النَّجَاشِـيِّ أَنْ يَخْطِبَهَـا لَهُ فَقَـامَ بِالـدَّوْرِ، وَأَمْهَرَهَا، وَكَانَ خَالِدُ بنُ سَعِيدِ بـنِ العَـاصِ وَلِـيَّ أَمْرِهَـا، وَانْتَقَلَتْ إِلَى المَدِينَةِ مَعَ شُرَحْبِيلَ بنِ حَسَنَةَ وَوَالِدَتِهِ.

وَصَلَ شُرَحْبِيلُ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى المَدِينَةِ، وَسُرَّ بِلِقَاءِ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعْدَ غِيَابٍ دَامَ مَا يَقْرُبُ مِنْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، كَمَا سُرَّ بِلِقَاءِ إِخْوَانِهِ المُؤْمِنِينَ، فَعَاشَ مَعَهُمْ بِسَعَادَةٍ وَشَارَكَهُـمْ فِي كُلِّ المُشْـكِلاَتِ الَّتِـي تَعْتَرِضُهُـمْ، وَكَانَ مَعَ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي كُلِّ الغَزَوَاتِ الَّتِي غَزَاهَا فَظَهَرَتْ شَجَاعَتُهُ وَتَضْحِيَتُهُ، وَظَهَرَ إِقْـدَامُـهُ وَعَبْقَرِيَّتُـهُ

فِي الحُرُوبِ، وَبَقِيَ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، هَادِئاً صَامِتاً فِي كُلِّ تَصرُّفَاتِهِ، وَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ عَنْهُ رَاضٍ.

وَتَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَمْرَ المُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّ العَرَبَ قَدِ ارْتَدَّتْ، فَوَجَّهَ الصِّدِّيقُ لِكُلِّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ جَيْشاً اخْتَارَ لَهُ قَائِداً مُحَنَّكاً، وَكَانَ شُرَحْبِيلُ مِمَّنْ وَقَعَ عَلَيْهِمُ الاخْتِيَارُ حَيْثُ بَعَثَهُ عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ لِدَعْمِ عِكْرِمَةَ بنِ عَمْرِو بنِ هِشَامٍ الَّذِي سَارَ لِلْقَضَاءِ عَلَى مُسَيْلَمَةَ الكَذَّابِ الَّذِي ارْتَدَّ وَتَنَبَّأَ فِي بَنِي حَنِيفَةَ فِي اليَمَامَةِ، وَطَلَبَ الخَلِيفَةُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ عِكْرِمَةَ أَلاَّ يُنْشِبَ القِتَالَ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهِ شُرَحْبِيلُ، غَيْرَ أَنَّهُ تَعَجَّلَ فَنُكِبَ، وَطَلَبَ الخَلِيفَةُ مِنْ شُرَحْبِيلَ أَلاَّ يَبْدَأَ الحَرْبَ مَعَ بَنِي حَنِيفَةَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ خَالِدٌ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْتَحِقَ بِجُنْدِ خَالِدٍ، غَيْرَ أَنَّهُ تَعَجَّلَ أَيْضاً فَنُكِبَ، فَفَعَلَ فِعْلَ عِكْرِمَةَ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ خَالِدٌ لاَمَهُ.

كَتَبَ الصِّدِّيقُ إِلَى شُرَحْبِيلَ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ خَالِدٌ، ثُمَّ فَرَغْتُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَالْحَقْ بِقُضَاعَةَ حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ وَعَمْرُو بنُ العَاصِ عَلَى مَنْ أَبَى مِنْهُمْ وَخَالَفَ.

وَانْتَهَى أَمْرُ اليَمَامَةِ، وَسَارَ شُرَحْبِيلُ إِلَى بِلاَدِ قُضَاعَةَ غَيْرَ أَنَّ

الصِّـدِّيقَ قَدْ نَدبَ النَّـاسَ مَعَـهُ، وَاسْتَعْمَلَـهُ عَلَـى عَمَـلِ الوَلِيدِ بنِ عُقْبَـةَ، وَهُـوَ إِمْـرَةُ الأُرْدُنِ وَقَـدْ كَانَ عَلَـى نِصْفِ صَدَقَاتِ قُضَاعَةَ، وَسَارَ شُرَحْبِيلُ إِلَى الأُرْدُنِ وَكَانَ هَذَا المَسِيرُ لِفَتْـحِ بِلاَدِ الشَّـامِ مَعَ إِخْوَانِـهِ أَبِـي عُبَيْدَةَ بـنِ الجَـرَّاحِ، وَيَزِيدَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَعَمْرِو بنِ العَاصِ.

نَزَلَ شُرَحْبِيلُ فِي البَلْقَـاءِ (مَنْطِقَـةِ عَمَّـانَ اليومَ)، غَيْرَ أَنَّ الرُّومَ لَمَّا بَلَغَهُمْ مَسِيرُ المُسْلِمِينَ إِلَى الشَّامِ حَشَدُوا حُشُـوداً ضَخْمَـةً، وَكَانَ عَلَـى المُسـلِمِينَ أَنْ تَجْتَـمِـعَ جُيُوشُهُـمْ، وَتَوَاعَدُوا عَلَى اللِّقَاءِ فِي مَنْطِقَةِ اليَرْمُوكِ، وَفِـي الوَقْـتِ نَفْسِهِ طَلَبُوا المَدَدَ مِنَ الخَلِيفَةِ، فَـأَمَرَ الصِّدِّيقُ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ أَنْ يَنْتَقِلَ بِجُزْءٍ مِمَّنْ مَعَهُ فِي العِرَاقِ إِلَى الشَّامِ، وَأَنْ يَتولَّى قِيَادَةَ المَعْرَكَةِ، كَمَا أَمَرَ عِكْرِمَةَ بنَ عَمْرِو بنِ هِشَامٍ أَنْ يَنْضَمَّ إِلَى إِخْوَانِهِ بِقُوَاتِـهِ الاحْتِيَاطِيَّةِ، كَمَـا نَدبَ النَّـاسَ إِلَـى الجِهَـادِ وَالسَّيْرِ إِلَى الشَّامِ.

وَصَلَ خَالِدُ بنُ الوَلِيدِ إِلَى مَكَانِ الْتِقَاءِ الجُيُوشِ الإِسْلامِيَّةِ عَلَى الضِّفَّةِ اليُمْنَى لِنَهرِ اليَرْمُوكِ، وَتَوَلَّى أَمْرَ القِيَادَةِ.

قَسَّمَ خَالِدُ الجَيْشَ الإِسْلاَمِيَّ فَكَانَ عَمْرُو بـنُ العَـاصِ عَلَى المَيْمَنَةِ، وَعَلَى جَنَاحِهِ الأَيْسَرِ شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَـةَ، أَمَّـا

القَلْبُ فَكَانَ بِإِمْرَةِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَكَانَ عَلَى المَيْسَرَةِ يَزِيدُ بنُ أَبِي سُفْيَانَ.

كَانَ ضَغْطُ الرُّومِ عَلَى مَيْمَنَةِ المُسْلِمينَ لِوَاءِ عَمْرِو بنِ العَاصِ، وَكَانَ هَذَا الضَّغْطُ عَلَى أَشُدِّهِ فِي الأَيَّامِ الثَّانِي، وَالثَّالِثِ، وَالرَّابعِ مِنْ أَيَّامِ المَعْرَكَةِ، وَكَانَ عَمْرُو يَضْطَرُّ أَحْيَاناً إِلَى التَّرَاجُعِ، ثُمَّ يَأْتِيهِ الدَّعْمُ مِنْ كَتِيبَةِ فُرْسَانِ خَالِدٍ وَالحَرَسِ المُتَحَرِّكِ الَّذِي يَقُودُهُ خَالِدُ أَيْضاً، وَيُصَدُّ الهُجُومُ الرُّومِيُّ. وَفِي اليَوْمِ الرَّابعِ تَرَاجَعَ عَمْرُو أَمَامَ السَّلافِ ثُمَّ صَمَدَ لَهُمْ، أَمَّا شُرَحْبِيلُ فَقَدْ تَراجَعَ أَمَامَ الأَرْمَنِ وَالنَّصَارَى العَرَبِ بِإِمْرَةِ جَبَلَةَ بنَ الأَيْهَمِ وَدَعَمَ خَالِدُ هَذَا الجَنَاحَ فَتَوَقَّفَ هُجُومُ العَدُوِّ، وَقَامَ المُسْلِمُونَ بِهُجُومٍ مُعَاكِسٍ انْتَهَى فِي اليَوْمِ الخَامِسِ بِهَزِيمَةِ الرُّومِ وَانْتِصَارِ المُسْلِمِينَ.

وَبَعْدَ اليَرْمُوكِ سَارَ المُسْلِمُونَ إِلَى دِمَشْقَ وَحَاصَرُوهَا وَنَزَل شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ عَلَى بَابِ السَّلاَمِ وَبَابِ الفَرَادِيسِ (العَمارَة)، وَأَخِيراً اضْطَرَّ الرُّومُ إِلَى التَّسْلِيمِ وَفَتْحِ أَبْوَابِ المَدِينَةِ لِلْمُسْلِمِينَ القَادِمينَ.

وَبَعْدَ فَتْحِ دِمَشْقَ اتَّجَهَ كُلُّ أَمِيرٍ إِلَى الجِهَةِ المُعَيَّنَةِ لَهُ، فَسَارَ شُرَحْبِيلُ إِلَى الأُرْدُنِ، وَأَنْهَى فَتْحَ مَا بَقِيَ مِنْ جِهَاتٍ لَمْ

يَدْخُلْهَا المُسْلِمُونَ، كَمَا كَانَ عَلَيْهِ مُعَاوَنَةُ عَمْرِو بنِ العَاصِ فِي فِلِسْطِينَ، لِذَا كَانَ كَثِيراً مَا يَنْتَقِلُ إِلَيْهَا فَيُسَاعِدُ القُوَّاتِ فِيْهَا، كَمَا يَسِيرُ إِلَيْهَا عِنْدَمَا يَأْتِي أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إِلَيْهَا، سَوَاءٌ أَجَاءَ لِلتَّفَقُّدِ أَمْ لاِسْتِلَامِ بَيْتِ المَقْدِسِ وَفِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ عَشَرَةَ انْتَشَرَ مَرَضُ الطَّاعُونِ فِيْهَا، وَهُوَ الَّذِي عُرِفَ بِطَاعُونِ (عَمْوَاسَ)[1] حَيْثُ أَولَ مَا ظَهَرَ المَرَضُ فِيْهَا. وَكَانَ شُرَحْبِيلُ فِي فِلِسْطِينَ فَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا، فَرَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهَذَا الوَبَاءِ فِي بَلَدٍ فَلاَ تُقْدِمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ وَأَنْتُمْ بِهِ فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَاراً مِنْهُ».

أُصِيبَ شُرَحْبِيلُ بِالطَّاعُونِ، وَأَبُو عُبَيْدَةُ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ، وَتُوُفِّيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعُمْرُهُ سَبْعٌ وَسِتُّونَ سَنَةً.

رَوَى حَدِيثَيْنِ، أَحَدُهُمَا ذَكَرَهُ ابْنُ مَاجَه فِي بَابِ الوُضُوءِ.

وَأَخِيراً فَإِنَّ شُرَحْبِيلَ كَانَ أَحَدَ الَّذِينَ غَادَرُوا دِيَارَهُمْ

---

(١) عمواس: بلدة تقع إلى الغرب من القدس، وعلى مقربةٍ منها، إذ لا تزيد المسافة بينهما على خمسة عشر كيلومتراً.

مُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. وَأَحَدَ الَّذِينَ قَضَوْا عَلَى حَرَكَةِ الرِّدَّةِ الَّتِي كَادَتْ تَعْصِفُ بِالدَّوْلَةِ الإِسْلامِيَّةِ، وَأَحَدَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَكانَ لَهُمْ دَوْرٌ فِي فَتْحِ الشَّامِ فَهُوَ بِذَلِكَ أَحَدُ بُنَاةِ دَوْلَةِ الإِسْلَامِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.